الغازي مصطفى كمال

بحث وتحليل للدوافع النفسية التي رفعته إلى الزعامة

للأستاذ أحمد رمزي بك

[إن من السهل على المرء أن يعمل من أن يفكر ، وإذا فكر فمن أصعب الأمور أن يجعل عمله خاضعاً دائماً لما أوصله إليه فكره] . «جوته»

عند اقتراب نهاية هذا العام يكون قد مضى على وفاة مصطفى كمال ثمانية أعوام ، خرج منها العالم من حرب عالمية طاحنة ، وتمخض فيها بالتغييرات والانقلابات الكثيرة . وكلما مرت الأيام تمثلت إلى شخصية الغازي كأنموذج لكلمة جوتة الخالدة : إذ هو من الأفراد القلائل في الشرق الذين عملوا بعد تفكير طويل ، وأخضعوا أعمالهم لفكرتهم الأولى ، ولما لازمهم التوفيق في جهادهم ، لم تسكرهم نشوة الظفر ولا شغلتهم مظاهر السلطان عن فكرتهم التي بدأوا منها وأخذوا بها ، ولذلك جاءت حياتهم العامة صورة لما انطبع في أذهانهم من أفكار وآمال كبار .

إن الزعيم المجاهد والجندي المنتصر قد أصبح الآن في ذمة التاريخ ؛ ولن يضيرنا اليوم أن نعرض لشيء من حياته وأعماله وخدماته ، فلو كان حيًّا يرزق لقيل لنا إننا نتملقه أو نتملق بلاده وشعبه ولاتخذ بعض الناس ذلك للقيل والقال ، أما وقد خفت ذلك الصوت الهادئ النبرات الذي كنت تسمع له رنيناً عند ما كان يخطب بالمجلس الوطني الكبير بأنقرة ، وأغمضت العينان اللتان كانتا تشعّان نوراً وبريقاً ، فقد أصبح في وسعنا أن نقول ما نعتقد وأن نكشف الستار عما نعلم وليست لنا غاية سوى إرضاء الحق .

* * *

بين ٢٥ إبريل و ٩ ديسمبر ١٩١٥ كانت حملة الدردنيل حيث دارت رحى الحرب على روابي شبه جزيرة غاليبولي ، وكانت معاركها محط أنظار العالم إذ كانت سلسلة من التجارب للقيادة التركية بل كانت أكبر من ذلك للجندي المقاتل . كانت

فاشترى جارية أولع بها وعكف عليها حتى افتقر ، وجاءها المخاض فذهب يطلب لها شيئاً فلم يرجع ، وأسعفها البقال أبو الفتى ، وولد للرشيد مولود فطلبت له المراضع فلم يقبل ثدي واحدة منهن فدل على الجارية فقبل ثديها ، وصارت ظئره وكان المولود هو أمير المؤمنين المأمون .

ويسمع الرجل القصة فيحس أن الأرض تدور به ، فيمر بآلاف الصور والألوان ، والشكوك والأماني ، ثم يسأله . وأين أم الولد ؟ ويحسب أن هذه اللحظة التي انتظر فيها الجواب ، قد طالت حتى غدت دهراً ، وأنه كالقائم ليسمع الحكم عليه بالبراءة أو القتل . فيقول الفتى : إنها باقية تغدو إلى دار الخليفة أياماً وتكون مع ابنها أياماً ، ولكنها لا تزال حزينة لم تمسح آلامها الأيام ولم ترقأ لها دمعة .

ويدعه الرجل ويركض إلى الدار يشعر أنه يمشي في الزمان ، يعود أدراجه إلى لياليه الماضيات ، إلى عهد الحب الضاحك ، ولياليه المترعات بالقبل . لقد نسي في هذه الخطوات كل ما لقي من شقاء ، وما حمل من ألم ، وامتلأ قلبه شكراً لله الذي استودعه حبيبته وما في بطنها فما ضاعت عنده الوديعة ، هذه الحبيبة التي طالما بكاها يحسبها ميتة وجاء ليدفن جسده الواني بجانب رفاتها ، فاتحة تنتظره لتمنحه عطرها وسحرها ونحرها ، وهذا الجنين الذي خلفه على باب الموت شاباً ممتلئاً قوة وأيداً ومالا ومجداً ...

ووصل إلى الشاب ، فقال له : ما تبتغي ؟

فخفق قلبه ، وتلاحقت أنفاسه ، وهمت مقلتاه ، ولم يجد ما يمهد به الحديث ، فقال له :

— أنا أبوك !

ونظر الشاب شاكا ، وقال له : اتبعني ، فاتبعه فاجتاز به صحناً بعد صحن ، حتى انتهى إلى مكان الحرم فأقامه أمام ستارة ، وذهب ليسأل أمه ، ودلّ الرجل قلبه على أن الحبيبة وراء الستارة فناداها ، وإذا الستارة تهتك ، والمرأة تثب إلى عنق الرجل ، تبكي وتضحك وتضحك وتبكي وتقول ما لا تدريه ...

ويدير الشاب وجهه فما يحسن به أن ينظر إلى أبويه وهما يعيدان عهود الهوى والشباب ...

علي الطنطاوي

له مدرسة قاسية واستحاناً وعراً أظهرا مزاياه وصفاته ، فى معركة أنافارطة أوقفت هذه الصفات الخلقية الكامنة فى نفسه الهجمات البريطانية المتراصة المتتالية المتتابعة كأمواج البحر .

وكان ذلك تحت قيادة رجل نحيف الجسم عصبى المزاج امتاز على أقرانه الضباط بعناده وقوة شكيمته : ذلك هو الأمير الاى مصطفى كمال الذى أقدم فى ساعة من ساعات التاريخ الفاصلة لحمل عبء أفدح المسئوليات التى تواجه رجل الجندية ، إذ كان الموقف جدىّ الخطورة ، وكانت القيادة فى قلق من انهيار الجبهة إزاء هجوم بريطانى حاسم ، ولم يكن الوقت يتسع للمداولة وتبادل الرأى فلم يكن لديها سوى رأيين يتلخصان فى نعم أو لا ، فنعم كانت قبول الهزيمة وما يتبعها من تراجع وفشل وسقوط العاصمة والفناء ، و«لا» كان معناها قبول المعركة فى ظروف سيئة ولكن فيها الثبات والعناد والمصادمة والمقارعة حتى يتم النصر .

وكان القائد الأعلى للجبهة الجنرال فون ساندوس الألمانى وهو من خيرة ضباط السوارى فى الجيش البروسى قد وجدها كبيرة عليه أن ينطقها لما تحتمله من المجازفة فى دخول معركة تبدو خاسرة ، فهو ليس من أهل البلاد ، وهو يعلم جيداً أن الفن العسكرى والعبقرية لا يجديان شيئاً أمام ساعات التاريخ الفاصلة ، وأمام القرارات الحاسمة ، التى لا تصدر عن إرادة القائد الحربى ، إلا بعد أن يدعمها الشعور القومى الواعى ، والإحساس الوطنى الوافر الذى يربط المرء بأرض بلاده وتاريخها ويجعله يشعر بأخطار المستقبل وبالمسئولية أمام الوطن ، وفى مواجهة الأجيال القادمة .

ولذلك ألقى العبء والمسئولية على عاتق مصطفى كمال ، فتولى المعركة وأعلن للقائد الألمانى « أن الهاجمين لن يقتحموا الجبهة وأنه يتحمل وحده مسئولية ونتائج المعركة التى تبدو خاسرة » .

واعترف مصطفى كمال بأن الذى دفعه لذلك هو إيمانه بأن الجنود الذين تحت إمرته سيبذلون ما فى طاقة البشر للقيام بواجبهم وأنهم سيقبلون التضحية بمجرد اشتباك القتال وأنهم سيثبتون فى مراكزهم ، وحقت فكرة قائدهم فقد ظهر جندى المشاة فى الصورة التى رسمها فى مخيلته مصطفى كمال . وهكذا ذاقت تركيا طعم النصر بعد سلسلة طويلة من النكبات والهزائم . فكانت وقفة رائعة لفتت الأنظار إلى عبقرية هذا القائد حتى إنه عند زيارته لألمانيا بادره الامبراطور غليوم عند ما قدم إليه بقوله : « الفرقة التاسعة عشرة أنافارطة » ونظرة عابرة تريك ماهى هذه الوقفة .

إن القطع العسكرية التى فى الخطوط الأمامية ذابت تحت نيران المدفعية وقذائف الأسطول ونيرانه المركزة ، ولكن لم يتراجع أو يفر فرد واحد منها ، بل فنيت بأكملها حتى آخر جندى فيها ، وكانت عظيمة فى موتها واستشهادها لأن الطلقات التى استمرت تقذف بها أوقفت الهجوم فى أشد الأوقات وأنقذت الجبهة إذ لم يطأ العدو خنادقها إلا بعد أن لفظ آخر جندى بها أنفاسه الأخيرة .

أما الفرق التى تجمعت فى الخطوط التالية فقد كانت تسير إلى الموت وقد ظهر تصميم القتال على وجوه أفرادها ، كانت رائعة فى مواقفها وفى ثباتها وهى تتراص ، كانت قد تحملت نيران العدو وقذائفه ثلاثة أيام بلياليها ، لم تؤثر فيها أيام الانتظار ولا ساعات السير على الأقدام من موقع لموقع . كان يخيل إلى من رآها أنها قد أتت من المؤخرة من ساحة العرض أو احتلت مراكزها بعد راحتها وكأنها لا تعلم بما يدور حولها أو كأنها لم تر بعينها سوق الموت القائمة .

نعم كانت معنوياتها وأعصابها باقرار كل من كتب عن هذه الحرب من النقاد الحربيين من البريطانيين والألمان وغيرهم ، فوق المستوى العادى للبشر فى الساعة التى رأت قائدها العنيد يباشر القتال بنفسه ويصدر أمره مقتحما أول ربوة واجهته ليقودها إلى النصر ، ولذلك جاء هجوم هذه الوحدات كأعصار يدك كل شىء ، ولم يكن الخصم ينتظر دفاعاً مثل الذى لقيه فى أول يوم ولا هجوماً كهذا ، وعليه ولى الهاجمون الأدبار وأخلوا المواقع التى احتلوها متجهين إلى البحر ، وفى مساء آخر يوم للمعركة جاء قائدهم من جزيرة لمنوس على باخرته من الجنوب ليشهد الشراذم تتجمع على الشاطئ لركوب القوارب ، كانت بقايا الوحدات المنظمة التى قذف بها على الجزء الغربى من غاليبولى : وكان أن اتخذ الأتراك اسم المعركة لقباً لأبطالهم فخلفوا بانافارطة واحتفلوا بها واتخذوا يومها عيداً لهم يعيدون فيه ويشيرون إلى أن بعثهم من جديد كأمة بدأ من ذلك اليوم .

واختتمت معركة أنا فارطة بأيامها ولياليها والقمر شاهد عليها بالنصر الذى جعل أعظم قوات العالم تبدّل وتغيّر فى خططها الكبرى واستراتيجيتها ثم تقرر إخلاء شبه الجزيرة ، وانتهت بذلك حملة الدردنيل بعد أن فتحت الطريق للقواد والنقاد والكتاب الحربيين يضمون المؤلفات عن تاريخها وأيامها ومواقعها فإذا نحن أمام مكتبة فيها عشرات المجلدات بمختلف لغات العالم ما تقرأ مجلداً بالانجليزية حتى تراه مترجماً للتركية وترى مثيله فيها ، وما تجد مؤلفاً بالألمانية حتى تجد ما يساويه بالفرنسية ، استعرض كاتبوها مواقع البر ومعارك البحر وحدّدوا سير القتال ومواضع الزحف وانتقدوا عمل الأساطيل كما انتقد رجال البحر عمل رجال الجندية ، وتبين من أقوال الاختصاص أن مشاريع اقتحام المضايق درست وبحثت ووضعت تفاصيلها منذ عام ١٩٠٦ ، وضع المؤلفون كتبهم وتداولها الناس ولكن رجلا واحداً بقى صامتاً لا يتكلم هو مصطفى كمال صاحب المواقف الحاسمة وبطل أنافارطة ، إنه لم ينسب لنفسه شيئاً بل قال : « إن ماحصل عليه من مجد ليس من عمله ؛ إنه نتيجة كفاح الجندى التركى وحده» ذكر مراراً ذلك وأعاده وكرره .

لقد انتهت المعركة التى جعلت منه بطلا عالمياً وخفتت أصوات المدافع وزمجرة البطاريات السريعة الطلقات وزالت الأخطار عن عاصمة آل عثمان فأقيمت الأفراح فإذا بأنصاف الرجال يدقون الطبول ويرفعون أرباع الرجال إلى السماء ، وإذا بهم يتقاسمون الأسلاب ويفرحون بما لم يفعلوا وينسبون أمجاد الغير لأنفسهم ، ووقف القائد العنيد يدخن سيجارته بهدوئه وصمته وقد اتجهت أنظاره إلى آفاق بعيدة ، فما الذى أوحت به إليه تلك الأيام الحالكة السواد وهذه المعارك الفاصلة ، وماذا تركت فى نفسه من دوافع وما حملت إليه من أفكار ؟ لقد كانت إقامته وقتئذ بمركز قيادة الفرقة التاسعة عشرة بشبه جزيرة غاليبولى ، وكان يقضى الأيام والليالى فى وحدة شاملة وقد تجمعت أفكاره واتجهت إلى مستقبل هذا الوطن الجريح ، وقد اخترقت عينه النافذة ما وراء الحجب فإذا هى تبصر ما يحيط ببلاده من الأخطار وما يحاك حولها من مكائد وما يرسم ويدبر من خيانات ، وما يرقبها من أهوال ونكبات .

فى لحظات التركيز والوحدة استرد مصطفى كمال ثقته فى نفسه وإيمانه فى أمته ، فأيقن أن الأقدار قد حمّلته رسالة مقدسة هى إنقاذ تركيا من مصائبها . ويحدثنا عن نفسه فى تلك الفترة الرهيبة فيقول : أخذت تنتابه الأفكار وترتاده الآمال الكبار وهو يحركها فى بوتقة التحليل مستعيناً بمنطقه الجبار فيفرز الغث من السمين ويطرد الهواجس والأحلام والخيالات الوهمية من نفسه بل يجتهد أن يحرّر عقله منها ، وأخيراً وجد ضالته فقال : « إن الامبراطورية التى أقامها بنو عثمان من بقايا ملك آل سلجوق وقدّر لها أن ترى فتح القسطنطينية يتحقق على يديها ، هذه الدولة التى سبّبت المتاعب والمخاوف لأوروبا وشعوبها ودانت لها الدنيا ستة قرون لم تعد شيئاً مذكوراً بعد الضربات التى تلقتها من أعداء الداخل والخارج ، فكل عمل يبذل لإنقاذها سيذهب هباء منثوراً » .

واضطربت نفسه أمام نكبات تركيا المتتالية وحروبها التى لا تنقطع فأراد أن يجد لذلك مبرراً من دروس الماضى متسائلا لماذا كانت بلاده من بين بلاد العالم هى التى توجّه إليها الضربات والهجمات من كل جانب ؟ حاول أن يجد تفسيراً لذلك فقال : « إن الأعلام الحمراء التى ظهرت فى آسيا وحملها جيوش المسلمين إلى أوروبا حتى ظللت أسوار فينا ، وقفت هناك وقفتها الأولى وكان ذلك فى القرن العاشر من الهجرة ، كما وقفت من قبل أعلام المروية والإسلام[1] فى تود وبواتييه من أرض فرنسا فى القرن الأول قبل الوقفة الثانية بتسعة قرون » .

« إن العهد الذى لقى فيه المسلمون أولى هزائمهم وفترت فيه معاركهم الزاحفة الفاصلة قد حرّك روح الانتقام لدى أعدائهم وأن القاعدة أن كل هجوم تعقبه فترة هدوء واستجمام للمهاجم ولكن هذا لا يمنع أن كل تصادم يحرّك تصادماً وكل هجوم يعقبه هجوم مضاد ، فالهزيمة التى أوقعها شارل مارتل بجيوش المسلمين فى فرنسا كانت فاتحة الهجوم المضاد الذى شنّته أوروبا على العرب فى أراضيها والذى دام ثمانية قرون حتى قذفت بهم

(١) لا يدهش القارىء من ذكر فتوحات العرب فقد أوردها بالنص فى خطبته وتحدث عن هذه النظرية مراراً وهو من أقدر الرجال فى استخلاص الحقائق من التاريخ .

على الشاطىء الأفريقي ، ولم تقف عند ذلك الحد ، بل استجمعت قواها في القرنين التاسع عشر والعشرين وأخذت تطارد العرب في ديارهم وتنتزع من أيديهم الجزائر وتونس ومراكش ومصر وطرابلس ، وما ملاحقة هـذه الشعوب والعمل على إفنائهم وإسكان الأوروبيين بأراضيهم سوى حلقـة من حلقات ذلك الصراع الصليبي الذي بدأ من تور وبواتييه أو قل هو الثمن الذي يدفعه العرب نتيجة لهزيمتهم في قلب فرنسا » .

« أما الأتراك العثمانيون فقد أثاروا الهجوم المضاد عليهم من يوم هزيمتهم تحت أسوار فينا إذ تلاحقت عليهم النكبات في خلال ثلاثة قرون ، فرض عليهم القتال فيها ولم تبق أمة من أمم أوروبا إلا اشتركت وساهمت فيه بحق وبغير حق ، بل وافتخرت بما سفكت من دماء المسلمين وبما أفنت من رجالهم وبما مزقت من أشلائهم وبما خربت من مساجدهم وآثارهم وقبورهم . لقد تجمعت على الأتراك القوى من كل جانب وحاصرتهم في البر والبحر ولم يبق بعد طول العراك سوى هذه البقعة من الأرض يرفرف عليها علمهم : فما قيمتها للجندي المقاتل الذي أغمض عينيه للمرة الأخيرة أمام نظر قائده ؟ هي له الموئل والمآل فهل هي النهاية كما كانت للأجداد بداية ؟ » .

في ليلة من ليالي أنقرة بقصر نشان قايا أخذ الزعيم يشرح هذه النظرية أمام جمع التف حوله فقال : « إن المعارك التي خضنا غمارها بالأمس والتي سندعى لغمرها بالغد هي حلقة من حلقات هذا الهجوم المضاد القاسي الذي شنه الغرب علينا وأثاره الترك بزحفهم إلى فينا كما أثاره العرب بفتوحاتهم الأندلسية ودخولهم إلى قلب فرنسا » .

قال إنه بعد معارك الدردنيل وفي وسط حرب الاستقلال كان يحدث نفسه قائلا : « لقد فرض علينا الأعداء أن نفني لأننا كنا أقوياء وخيل إليهم أن جهادنا التاريخي قد انتهى وأننا نعالج سكرات الموت في الموقع الأخير the hast fost فهل تنفخ في البوق النغمة الختامية على أجساد آخر المقاتلين من بقايا تلك الملايين التي جادت بالأرواح في حومة الوغى وتطوى تركيا وتحمل إلى اللحد كما فنيت وطويت آشور وروما وكما زال فرعون وثمود وعاد » .

حدث عن نفسه قائلا إنه في أسوأ المواقف كان يشعر « بأن هذا لن يكون وأن بلاده ستبعث قوية وستحيا إلى الأبد » .

وهنا التفت وصوب نظراته النافذة وخرج كلامه قوياً فقال « إن إطلاق النظريات الإنشائية والآمال والأفكار الكبرى سهل على النفس ولكن التمسك بها والسير على ضوئها صعب ، لأن هذا يستلزم أولا إخراج ما يلابس هذه النظريات والمبادئ من عوامل السلبية وما يلازم الفكر البشري من عناصر الضعف والتردد ، إن الأفراد الذين ينصبون أنفسهم لخلاص الوطن يجب عليهم أن يتجردوا من أشياء كثيرة عزيزة عليهم » .

ذلك مبدؤه الذي نادى به في تلك الليلة ؛ وتفسير ذلك أن معارك الدردنيل أصبحت له قوة دافعة بل كانت حداً فاصلا في حياته إذ أمضى الشهور ونفسه متوثبة متطلعة تحت تأثيرها ، ولكن ما لبث أن واجهتها الحقائق : عادت إليه ذكريات الهزائم التتالية وأخذت تبدو إليه العاصمة بمظاهر التفكك والانحلال الخلقي وعوامل الهدم وتأثرت نفسه لما استعرض تاريخ الحروب والمعارك التي كسبها مقاتلة الترك ثم أضاعها رجال السياسة والمواقف التي اكتسبها هؤلاء في ميادين السياسة وأضاعها رجال الحرب في ميادين القتال .

وبرزت تركة الرجل المريض المحتضر على حقيقتها محملة بالأعباء والمصائب وبدا المستقبل قاتماً مظلماً كالليل . تلك هي النواحي السلبية التي أخذت تساوره في الأيام التاريخية التي وقعت بين حملة الدردنيل وعودته من ألمانيا ، قال « إنه وجد أمامه بصيص نور من أنوار الأمل هو ذلك الضياء الذي ارتسم على وجه الجندي التركي في معركة أنافارطة حينما لقي الموت وهو قرير العين ، كانت ابتسامة تحمل الخلود للأمة التي أنجبت هذا المقاتل الذي لقي ربه وهو ضاحك بعد أن أدى واجبه نحوها » .

وكتب مصطفى كمال فقال : « لو قدر لهـذا الجندي أن يجد القيادة الحازمة ، ولو لمس الإخلاص الذي يشع من قلبه فوجده في قلوب الساسة والقادة لغير وبدل ما كتبه التاريخ في عصور الانحطاط ولأعاد مرة أخرى عهد الدماء القوية التي حملت الأعلام الحمراء إلى قلب أوربا رفرفت النصر في كل معركة دخلتها . إنها ليست أخطاء الشعب إنها خطايا القادة التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه »